

الموت اكتمال نصاب الحضور (تأملات في رثاء جابر الجمعية لابنه هشام)

لحظة العبور بين الغياب والحضور:

منذ اللحظة الأولى للفقد تتجلى (الغرفة الباردة) كمرآةٍ لحضور روجي لا يزال معلقاً ، كأن (هشام) ذلك الملاك الوضيء لم يغادر المكان تماماً بل خلف أثراً للعبور ، والأثر علامة حضور :

(غرفةٌ باردة) والأثاثُ على حالهـ
مُنذ أن غادرتها الملائك يحملن روجي معك
الى أين يأخذنك الآن ؟
قُل لي لماذا تركت فؤادي وحيداً يُقاسي
وليسَ معي غيرَ هذا السُّهادِ
وبعض الدموع فكيف لدمعٍ جرى يُرجعك؟

فالعُرفة بوابة عبور ..
الأب في ضفة
والابن في ضفة
والدمع هو الماء الفاصل بين الضفتين .

وفي بيتٍ آخر يؤكّد جابر الجمعية هذه الرؤية :

الراحلون إذا مرّوا بخاطرنا
توهّجوا وكأن الموت ما كانا

فالخاطر الذي كان يفترض أن يكون مسرحاً للندبة ، أصبح محراباً للتجلّي.
وهكذا ، يثبّت جابر الجمعية في هذا البيت فكرته الشعرية المحورية: أن الرحيل لا يلغي الأثر، بل يؤبّده .

من الأرض إلى الفيض :

الموت في يقين جابر الجمعية هو مجرد كامل وانتقال من عالم الأرض الدنيوي إلى عالم الفيض السماوي حيث تتلاشى حدود الوجد واللهفة ..

تتجسد رحمة الله سبحانه في شكل فيض مستمر حتى تتحول المجالس إلى رحابٍ روحية :

وفي فراديسه أضحت مجالسهم

فيضاً من اللطف روحاً ثم ريحانا

ويوازن بين (الانشغال الفيضي) و

(الذكرى الأرضية) في جذبة صوفية تقول :

هم برحمته العظمى قد انشغلوا

ونحن في ذكرهم نزداد أحزاناً

في هذا البيت، يقيم جابر توازناً تأملياً بين عالمين متوازيين: العالم الأرضي الذي يزرع تحت وطأة الحزن والفقد، والعالم الآخر حيث تستغرق الأرواح الراحلة في رحمة عظمى، وفي فيض من الطمأنينة الربانية ...

هكذا يلعب الحزن كجسر بين عالمين، لا كهواية بينهما.

الموت مرافقة لا مفارقة :

في عينه اليمنى حكاية لهفتي

في عينه الأخرى حنين خطاه

العيون التي أغمضها الموت لا تزال مفتوحة في قلب الأب، شاهدة، محمّلة بالشوق والرحيل، بل محمّلة بالشاعر نفسه.

ويقول:

لا شيء يوسعني خوفًا وأوسعهُ

غيري، وإن كان مثلي يحملُ الخطرا

وكان الحاضر يسكن الغائب، يتداخلان ، فلا يعرف الشاعر أين يبدأ هو وأين ينتهي الابن. هذا التماهي هو ذروة المرافقة .

يبلغ هذا التماهي ذروته في قوله:

شيءٌ عتهُ وتركْتُ رُوحِي عندهُ

من ذا يُشيّعُ في الطريقِ أباهُ؟

الحيُّ هو المحمول على نعش الأسي، والميت هو الذي احتوى روح الآخر.

بهذا المعنى، يُنكر البيت القطيعة المطلقة مع الراحل، ويؤكد أن الفقد لم يُنهِ العلاقة، بل أطلقها في شكل جديد، أكثر وجعًا، وأكثر التصاقًا .

فالحبيب لا يمضي دون أن يأخذ شيئًا منا، وقد يأخذنا كلنا، ولا يعود بنا، بل يتركنا على تخوم العبور، لا موتى ولا أحياء .

الغياب ارتقاء وليس اختفاء :

قبلتهُ بجبينهِ وبخدهِ

يا وردَ الندى، اِنّي

هذه القبله طبعها الأب على جسد بدأ يتحرر من الكثافة البشرية إلى اللطافة الإلهية ، فكان "ورد الندى" وهي صورة للروح وقد تخفت من الطين الذي أثقلها .

ثمَّ يبلغ العروج قمّته في مشهد الوصل الأبدي:

أبتاهُ قال: وفي يديهِ قلائدُ

ما أجملَ الجنّاتِ يا أبتاهُ

هذه الجملة كشفٌ عن عروج هشام إلى الفردوس، وعن رؤيته لما لا يُرى، يقولها جابر كما يقولها العارف لحظة الوجدان، ويؤمن بها كما يؤمن سالكُ رأى بنور البصيرة .

إذن رثاء جابر لابنه هنا لا يوثّق الغياب، بل يُكمّل نصاب الحضور ...

بعدَ الذي ذابَ في عينيهِ واتحدا

طالَ البُكاء ولم يُخبر بهِ أحدا

وكانَ يرتقب الظلماء في عجلٍ

لعلها تطفئ الدمع الذي اتقدا

حرارة الفَقْد من يدري حرارتها

إلا الذي فاقدُ من ضلعهِ ولدا .